أخبار الخليج
العدد (٩١٦٧) الثلاثاء ٢٧ صفر ١٤٢٤ هـ ـــ ٢٩ ابريل ٢٠٠٣م

سياســـة إدارة بـــوش في الشـــرق الأوســـط

مرحلة من استراتيجية الهيمنة الأمريكية على العالم

بقلم:
سميرة رجب

المتتبع لشئون منطقة الشرق الأوسط، خلال جيل كامل منذ حرب ١٩٧٣، يستطيع أن يعطي مؤشرات وأدلة كثيرة على ان الأحداث التي تمر بها منطقة الشرق الأوسط اليوم، ليست وليدة عهد جورج بوش (الابن)، وان المؤسسات السياسية الأمريكية لم تبدأ بوضع وتنفيذ مخططاتها للشرق الأوسط، فقط منذ بداية إدارة بوش (الابن)، أي منذ ما يقل عن عامين، إذ ان هذه المخططات والاستراتيجيات التي تم وضعها في وقت سابق بدأت خيوطها العملية تتضح في أزمة الخليج عام ١٩٩٠، وبالحرب البشعة التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق عام ١٩٩١. لذلك يمكن أن نؤكد أن ما يحدث اليوم، من أحداث خطيرة، على الساحة العربية وما تنفذه إدارة بوش هما إحدى المراحل المتقدمة للاستراتيجية الموضوعة لهذه المنطقة بهدف السيطرة على منابع النفط في العالم، وتحويل الولايات المتحدة الأمريكية الى المتنفذ الوحيد في منابع النفط واستخراجه وتصديره وتسعيره واحتياطيه، من دون منافس، وبذلك تصبح هي بحق الدولة العظمى والقوة الاقتصادية الأولى والأكبر، حسب النظام العالمي الجديد ذي القطب الواحد، والامبراطورية القادرة على التحكم في اقتصاديات العالم شرقا وغربا.

أظهرت أغلب الدراسات الوطنية الجادة في العالم العربي، منذ وقت مبكر، المؤشرات الواضحة للاستراتيجية الأمريكية لاحتواء النفط العربي التي بدأت منذ ما بعد القرار العربي بوقف تصدير النفط للضغط على مواقف دول الغرب لصالح العرب في حربهم ضد اسرائيل سنة ١٩٧٣، الذي كان له تأثير في بعض القرارات التي لم تكن في صالح الولايات المتحدة وإسرائيل في تلك الحرب، والذي أيقظ العالم على الأهمية الكبيرة لهذا المصدر الحيوي للطاقة. هذا ما أعلنه هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق، بعد حرب ١٩٧٣ عندما كتب عن حيوية وأهمية الطاقة النفطية بالنسبة إلى اقتصاديات العالم، وعن القرار العربي باستعمال النفط كسلاح في المنازعات الإقليمية، الذي اعتبره تهديدا لمصالح العالم ولمصالح الولايات المتحدة بشكل خاص، وقام بوضع تصور للخطة المتكاملة للتدخل العسكري للسيطرة على منابع النفط في العالم بما يخدم المصالح الأمريكية، وبما يمنع تكرار ما حدث في تلك الحرب. وهنا بدأ التداخل الجوهري بين المصالح الأمريكية في النفط العربي مع مصالح الدولة الإسرائيلية في إكمال احتلالها للأراضي الفلسطينية والانتهاء من جميع أشكال المعارضة العربية لوجود هذه الدولة المصطنعة في هذه المنطقة، وذلك بإضعاف الأنظمة العربية والقرار العربي لدرجة القبول بهذا الوضع مع عدم امتلاك أية قدرة أو سلاح استراتيجي للدفاع عن أنفسهم في مقابل أية قوة خارجية.

كانت تلك الحرب مدخلا للتوقيع على اتفاقية كامب ديفيد الأولى بين مصر واسرائيل التي كانت مجحفة بحق الفلسطينيين والعرب، والتي ربطت مصر بتطبيع علاقاتها مع الدولة الإسرائيلية، مما حقق لإسرائيل السلام على احدى أهم جبهاتها وهي الجبهة المصرية، لتتفرغ لمواجهة الدول العربية الأخرى، فكانت هذه الاتفاقية سببا في انشقاق الصف العربي بالنسبة إلى مواقفه من القضية الفلسطينية، ومن اسرائيل، واستطاعت الدولة العبرية ان تنتزع الاعتراف العربي الأول بكيانها.

بعد تلك الحرب تغيرت الأوضاع العربية سلبا، بدءا بإغراق المنطقة بالعوائد النفطية العالية التي غيرت من نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية العربية بشكل جذري، انتهاء بحربي الخليج الأولى والثانية، ومرورا بالحرب الأهلية اللبنانية التي امتدت لفترة ١٨ عاما، واحتلال اسرائيل لجنوب لبنان، ودخولها في مجازر ضد الفلسطينيين في بيروت. فكانت هذه المؤشرات بالإضافة الى الكثير من الأحداث السريعة التي لا يمكن التوقف عندها طويلا، تدل على دخول هذه المنطقة في دائرة اهتمامات الإدارة الأمريكية، وعلى تلاقي مصالحها مع المصالح الإسرائيلية، فارتبطت الاستراتيجية الأمريكية لعسكرة واحتلال منابع النفط مع الرغبة الإسرائيلية في الانتهاء من المقاومة والرفض العربيين لإسرائيل بأي شكل من الأشكال. وهنا كانت البداية.

الاستراتيجية الأمريكية بعد انتهاء الحرب الباردة:

ومن دون الدخول في تفاصيل أحداث الشرق الأوسط منذ ذلك التاريخ الى اليوم، كان يجب التعرف إلى هذه المقدمة التي تفسر لنا أصل الأحداث التي تمر بها المنطقة حاليا، والتي بدأت تتفاعل سريعا مع انتهاء الحرب الباردة بسقوط النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (سابقا) في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، واستقلال جمهورياته الغنية بالنفط مما دفع الإدارة الأمريكية إلى التوسع السريع في دائرة استراتيجياتها بهدف الدخول الى هذه الجمهوريات في آسيا الوسطى والسيطرة على منابع النفط قبل أن تفكر أية قوة عالمية أخرى في القيام بهذه المحاولة، وخصوصا الصين أو اليابان أو الهند القريبة منها جغرافيا، مما يعني ظهور قوة عالمية أخرى تنافس القطب الأمريكي.

كانت البداية في تصريح جيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي في فترة رئاسة جورج بوش (الأب)، بعد الانتهاء من الحرب الباردة مباشرة في بداية التسعينيات عندما قال: «إنه قد حان الوقت لتغيير الأوضاع السياسية في المنطقة»، مشيرا الى بداية عهد جديد في السياسة الأمريكية كقطب عالمي واحد يملك الإرادة والقوة لتغيير الأوضاع بما يتناسب مع مصالحها في جميع أنحاء العالم، وخصوصا فيما يتعلق بالمنطقة العربية والمناطق الغنية بالنفط. لذلك لم يكن هناك شك في أن القوات الأمريكية التي حشدت في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية عام ١٩٩٠ كانت قد جاءت لتبقى.

أما الحالة الراهنة للسياسة الأمريكية، بإدارة جورج بوش (الابن)، المصرة على فرض الهيمنة الأمريكية المباشرة على الوطن العربي، فما هي إلا مرحلة تثبيت الانفراد الأمريكي بقيادة النظام العالمي مما يحوله من وضع مؤقت الى بنية مستقرة لعقود قادمة من الزمان، وليس القرار الأمريكي بضرب العراق وإطاحة نظامه سوى حلقة مهمة من حلقات تنفيذ تلك السياسات التي سبقتها حلقات أخرى، وسوف يتلوها المزيد من الحلقات بعد هزيمة العراق.

تداخل المصالح الأمريكية والإسرائيلية:

إن سياسة إدارة بوش (الابن)، المكشوفة تماما، في خلق أزمة الإرهاب الدولي (التي تعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠٠ احدى حلقاتها)، لتحل محل الشبح الشيوعي القديم، لتنفيذ مخططاتها بشن حربها البشعة على الأفغان، كانت لتأمين طرق نقل النفط الذي تمت سيطرة شركات النفط الأمريكية العملاقة على منابعه في جمهوريات آسيا الوسطى الغنية. كما ان استغلال ذلك الشبح الجديد في خلق الوضع الخطير المتمثل في المواجهة الأمريكية العراقية من جهة والمواجهة الإسرائيلية الفلسطينية من جهة أخرى، ومحاولة خلق أزمة حقيقية لتغيير النظام السابق في العراق بأية وسيلة وتسليم العراق وثرواته النفطية إليد الإدارة الأمريكية، ما هي إلا محاولة للسيطرة على الأرض العراقية كأهم منطقة استراتيجية، جغرافيا واقتصاديا، في الشرق الأوسط، كقاعدة انطلاق للسيطرة على باقي المنطقة في الخليج وإيران، ومن جهة أخرى على تركيا، وجميع القوى المقاومة للاحتلال الإسرائيلي من خلال سوريا. وهنا تتلاقى المصالح الإسرائيلية مع المصالح الأمريكية في القضاء على جميع أنواع المقاومة للوجود الصهيوني في المنطقة، وإنهاء قضية فلسطين بالوسائل التي ترتئيها مصالح إسرائيل.

من هنا أيضا يمكننا أن نؤكد أن جورج بوش (الابن) كمرشح للحزب الجمهوري، والمعروف بتدني ذكائه وثقافته السياسية بشكل عام، جاء ليكمل حلقة في مسلسل السياسة الأمريكية للسيطرة على منابع النفط عسكريا، الذي أدار والده (جورج بوش الأب) أهم حلقاته المفصلية عام ١٩٩٠، في حرب الخليج الثانية، التي لاتزال المنطقة العربية عموما تعاني من آثارها السلبية اقتصاديا وبيئيا وصحيا وسياسيا.

استراتيجية احتلال العراق:

حققت حرب الخليج الثانية أهم أجزاء المخطط الأمريكي بفرض وإحكام السيطرة والحصار على العراق الذي كان في ذلك الوقت الدولة العربية الوحيدة التي تعارض علنا وسرا الوجود الإسرائيلي في فلسطين، كما ترفض جميع أشكال الهيمنة الأمريكية على مصالح وموارد وسياسات وأنظمة المنطقة العربية. إضافة الى أن هذه الدولة العراقية كانت قد خرجت من حربها ضد ايران التي دامت ثماني سنوات، لتصبح دولة صناعية قوية، وتتمكن من الدخول في دائرة الدول المتقدمة تكنولوجيا ونوويا، ودخولها في دائرتي التسلح والتصنيع المحرمتين على دول المنطقة.

كان لهذين العزلة والحصار التاريخي الذي فرضا على العراق منذ عام ١٩٩٠ وحتى اليوم، الدور الكبير في اضطرار القيادات الفلسطينية إلى الدخول في مفاوضات سلام مع إسرائيل، والقبول بالكثير من الشروط التي لم تكن هذه القيادات ستوافق عليها لو كانت هناك دولة عربية واحدة تدعم دورها في مقاومة الاحتلال اليهودي لأراضيها، فجاءت اتفاقيات أوسلو ومدريد والقضاء على الانتفاضة الأولى التي بدأت في الثمانينيات وانتهت بالتوقيع على اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٢.

ولكن بعد كل ما حدث، منذ تلك الاتفاقية من مواقف اسرائيلية غير ملتزمة بتنفيذ الحد الأدنى من بنود السلام المتفق عليها، واضطرار اسرائيل إلى الانسحاب من الجنوب اللبناني تحت ضغط المقاومة، وقيام الانتفاضة الثانية في الأراضي الفلسطينية وارتفاع وتيرة العمليات الاستشهادية في الأراضي المحتلة وتأثيرها العميق في الأوضاع داخل اسرائيل بالرغم من كل المذابح التي قام بها شارون ضد الفلسطينيين، كل تلك الأحداث أوصلت الوضع الفلسطيني إلى مرحلة حساسة تستوجب وضع حلول نهائية للقضية كاملة.

من الناحية الأخرى كان لعدم قدرة الإدارات الأمريكية المتلاحقة منذ عام ١٩٩٠ وحتى اليوم على استقطاب الدول العربية فرادى للدخول في اتفاقيات تطبيع واعتراف علني بالكيان الصهيوني، بسبب عدم انهاء القضية العراقية واستمرار وجود النظام العراقي القادر على فضح الأنظمة العربية أمام شعوبها، كذلك ذلك خلق لدى الكيان الإسرائيلي والإدارة الأمريكية المرتبطة مصالحهما ببعض، فكرا استراتيجيا جديدا في أن القضية الفلسطينية يجب ان توضع على الرف حاليا لاقتناعها بان الطريق الى السلام في الشرق الأوسط وإنهاء جميع أنواع الرفض العربي ضد إسرائيل يبدأن من بغداد وليس من رام الله أو القدس.

ولعل أقوى دليل على الفكر الاستراتيجي السائد والمعدل تكتيكيا الذي يعد ضرب بغداد الطريق الى تحقيق السلام في القدس هو ان مشروع القرار الأصلي الذي عرضه بوش على الكونجرس كان يصر على إصداره كان يتضمن فقرة حذفت حتى يحصل على قرار ترضى عنه الأغلبية ويظهر الكونجرس كأنه متحد في توجهه وراء الرئيس، وهي الفقرة التي كان يريد منها بوش إعطاء سلطة استخدام القوة لحفظ السلام في منطقة الشرق الأوسط والسلام العالمي.

أهداف الامبراطورية الأمريكية العظمى في العالم:

بعد انتهاء الجيش الأمريكي من حربه في أفغانستان وإحكام سيطرته الكاملة على نفط آسيا الوسطى ومنافذه، كان من الواضح تماما أن هناك قوى داخلية في الولايات المتحدة تدفع إدارة بوش الى اتباع الخيار العسكري ضد العراق لتحقيق السيطرة على منابع النفط الغنية هناك، بحجة انه يتيح لأمريكا مركزا استراتيجيا في الشرق الأوسط، اذ انها سوف تتمكن من ان تحصر ايران بين وجودها في افغانستان ووجودها المتوقع في العراق، وفي نفس الوقت تعطي شيئا من الشرعية لسياساتها في ردع الجماعات الإرهابية التي يحاولون ان يثبتوا للعالم انها تنبع من الشرق الأوسط ومن المنطقة العربية، كما أنها سوف تتمكن من حل مشكلة الشرق الأوسط التي حان وقت انهائها باعتراف جميع الدول العربية بالدولة العبرية. وبعد تحقيق كل ذلك تتربع الولايات المتحدة على عرش العالم في نظامها الامبراطوري الجديد.

نتائج الاستيلاء على منابع النفط في العراق:

العراق هو المنتج الثاني للنفط في الشرق الأوسط بعد السعودية التي تتبوأ المركز الأول، وأمريكا تعد المستهلك الأول في العالم للنفط حيث تستهلك وحدها ربع انتاج العالم من النفط، بجانب ذلك تدار الولايات المتحدة حاليا من قبل رجلين، الرئيس ونائبه المحنك اللذين يشتركان في الولع بصناعة النفط وفي احساسهما بالأحقية في احتياطيات النفط في العالم بصرف النظر عن الدولة التي تتمتع بهذا الاحتياطي.

وتتوافق رؤية عائلة بوش، كأصحاب شركات نفطية عاملة في الخليج ومناطق أخرى، تماما مع السياسة الأمريكية في ان أهم سلاح للدمار الشامل يمتلكه الرئيس العراقي هو التهديد بالسيطرة على «حنفية النفط» في الخليج العربي، ويعد ذلك اتفاقا تاريخيا بين الاستراتيجية الأمريكية والمصالح الشخصية للإدارة الحاكمة حاليا. إذاً هذه هي المرحلة التاريخية المناسبة لتحقيق السيطرة الأمريكية على منابع النفط التي قد لا تتوافر فرصة تاريخية أخرى مثلها لعقود طويلة قادمة، مما يدفع بهذه الإدارة الإصرار على استغلالها وتنفيذ الاستراتيجية النظرية على أرض الواقع.

في نفس الوقت، لم تحاول هذه الإدارة ان تخفي رؤيتها المستقبلية في رسم خريطة جديدة للمنطقة على أنقاض النظام العربي الراهن بعد الانتهاء من القضية العراقية، وهذا ما دفع ببعض الأنظمة العربية لرفض الحرب، وسقوط الموارد العراقية لحساب الهيمنة الأمريكية، التي سوف تعيد العرب الى الوراء قرابة القرن. وهذا أيضا ما دفع بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا وألمانيا إلى رفض هذه الحرب التي اذا تحققت نتائجها حسب التوجه الأمريكي فسوف يكتمل الجزء الأكبر من الامبراطورية الأمريكية التي سوف يكون لها دور رئيسي في التحكم في اقتصاديات العالم ومنها الدول الأوروبية الغربية والشرقية بالإضافة الى الصين واليابان وشرق وجنوب آسيا، التي تشكل جميعها تحديا بالنسبة إلى القوة الأمريكية الحالية. وهنا نصل الى ضرورة التفكير في السؤال: ما العمل؟ وما هي الوسائل الرادعة للقوة الأمريكية المتنامية؟

وسائل الردع:

منذ انتهاء الحرب الباردة، وسطوع نجم الولايات المتحدة كقوة أولى في العالم، أصبحت السياسة الأمريكية مكشوفة تماما لجميع دول العالم. لم تعد استراتيجية الهيمنة الأمريكية على مصادر الطاقة قضية إقليمية ضد العرب وحدهم، بل هي في طريقها للتحول الى أزمة عالمية وعلنية من دون شك، والدليل على ذلك معارضة فرنسا وألمانيا، أكبر دولتين أوروبيتين، بالإضافة إلى المعارضتين الصينية والروسية لحرب الولايات المتحدة على العراق، مما يدل على بروز قناعة واضحة لدى مختلف الأطراف بجسامة خطورة السياسات الأمريكية على مصالحهم الاقتصادية مستقبلا، بالرغم مما يمكن ان يحققوه من خلال بعض التحالفات والاتفاقيات للحفاظ على بعض الحقوق أو الحصص بعد الانتهاء من هذه الحرب.

على هذه الأسس يمكن وضع تصور لبعض الأطراف الدولية التي يمكن ان تشكل قوة رادعة في وجه الأحلام الأمريكية التي بدأت بتحقيقها منذ أكثر من عقد من الزمان بالحروب والمنازعات العسكرية والقتل والدمار، والتي سوف تدفع باتجاه خلق ارهاب عالمي حقيقي (وليس ذلك الشبح الوهمي الذي تلوح به الإدارة الأمريكية وتستغله بطريقتها الخاصة)، والى هزات اقتصادية عالمية واتساع فجوة الفقر العالمي. هذه الأطراف بكل تأكيد بإمكانها ان تكون الوسيلة الرادعة ان هي بدأت بالعمل قبل فوات الأوان وكان هناك عزم حقيقي للقيام بهذا الدور:

أولا: دول «الفيتو» الرافضة للدور الأمريكي مثل روسيا والصين وبقيادة فرنسا الطرف الأكبر في هذه المعادلة، مع أهمية كسب دعم الاتحاد الأوروبي، مستفيدة من تجربة الحربين العالميتين الأولى والثانية وما يمكن ان تولده الحروب من حروب جديدة، على ان تتخطى نظرتهم موضوع توزيع الحصص والمصالح على حساب الدول الأضعف، لأن الغول الأمريكي لا يعرف الأصدقاء في حسابات المصالح.

ثانيا: الدول الصناعية الكبرى، مثل المانيا واليابان ودول شرق آسيا والهند التي يطالب بعضها بحقوق جديدة في التنظيمات المستقبلية للأمم المتحدة ومنها حق «الفيتو». لهذه الدول دور كبير عند اتفاقها على أهمية مواجهة هذا التحدي الذي، بكل تأكيد، سوف يكون في صالحها على المدى الطويل.

ثالثا: الدول العربية، ذات الشأن المباشر في هذه الاستراتيجيات الأمريكية، التي يجب عليها رفض الضغوط الأمريكية المنتقصة لسيادتها والتي سوف تدفع الثمن غاليا بعد الحرب مباشرة، وسوف تشهد أوضاعا سياسية واقتصادية مفروضة عليها من دون أية قدرة على المعارضة أو الرفض بعد الحرب على العراق. هذا الدور العربي لكي يكتسب قوة وفعالية يلزمه انفتاح الأنظمة على شعوبها بالديمقراطية التي كانت ولاتزال المطلب الرئيسي لهذه الشعوب، والتي سوف تدفع الشعوب للوقوف في صف أنظمتها ضد أية ممارسات ترفضها الشعوب، إضافة الى ان هذا الدور العربي سوف يدفع الكتلتين السابقتي الذكر إلى التفكير الجاد في الوقوف في مواجهة هذا التحدي الأمريكي، المرفوض من الشعوب والحكومات.

Sameera@binrajab.com

○ نشر هذا المقال في مجلة أبحاث الشرق الأوسط في اليابان - عدد مارس ٢٠٠٣